



عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية





في القرآن الكريم

الطبعة الرابعة

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

الرياض - الدائري الشمالي - مخرج ١٥

هاتف ٢٥٤٩٩٩٣ - تحويلة ٣٣٣ - ناسوخ ٢٥٤٩٩٩٦

ص. ب. ٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤

البريد الحاسوبي: tadabbor@tadabbor.com

www.tadabbor.com

ح عصام صالح محمد العويد، ١٤٣٤ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العويد، عصام صالح محمد
فن التدبر في القرآن الكريم / عصام صالح محمد العويد - ط٤ - الرياض ، ١٤٣٤ هـ
٨٠ ص، ١٤ × ٢١ سم
ردمك: ٣ - ٢٤٩٢ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - مباحث عامة ٢ - القرآن- أحكام أ. العنوان
ديوي ٢٢٩ ١٤٣٤/٦٠٥٧
رقم الإيداع: ١٤٣٤/٦٠٥٧
ردمك: ٣ - ٢٤٩٢ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

رقم الإيداع : ١٤٣٤/٦٠٥٧
ردمك : ٣ - ٢٤٩٢ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨



إلى والدي..

كل نبض حرفٍ في هذا الكتاب إنما هو نبض رعايتكم وتربيتكم، فإنما هو -بعد خالقي- منكما بدأ، وإليكما يعود.

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾

إلى قرة عيني..

لقد التقطت أنفاسي عطر الحياة مرتين:

أما الأولى: فأنفاس والدتي الرؤوم، فللَّه ما أعطرها -حفظها الله ورعاها-.

وأما الثانية: فأنتِ يا أحب الناس.

عصام


بسم الله الرحمن الرحيم



تقـــديم

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.. أما بعد:

فإن تذليل العلم وتقريبه إلى الناس من أهم المهمات، خصوصًا ما يتصل بتقريب معاني كلام الله تعالى ورسوله ﷺ لعموم المسلمين.

ولئن كان تقريب العلم -الذي كُتِبَ فيه كثيرًا- مهمًّا لأهل العصر، فإن العلم الذي لم يكتب فيه إلا نادرًا أهم وأشد حاجة، ومن هنا جاءت هذه الرسالة -الصغيرة في حجمها، المهمة في مضمونها-: «فن التدبر في القرآن الكريم» لفضيلة الشيخ عصام بن صالح بن محمد العويِّد -عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، والعضو المؤسس للهيئة العالمية لتدبر القرآن-، والتي كتبها لعموم المسلمين[1] الذين أيقنوا بأن التدبر من أعظم مقاصد نزول القرآن الكريم، وأنه الطريق الأقصر لصلاح القلب، وزكاة النفس، والتلذذ بكلام الله جل جلاله.

---

(١) وللشيخ -أثابه الله- رسالة أخرى، كتبها لطلاب العلم المهتمين بهذا الموضوع، واسمها: «**المراحل الثمان لطالب فهم القرآن**»، وهي إحدى مطبوعات مركز تدبر لعام ١٤٣٠هـ.

وإننا في مركز تدبر، لنسعد بنشر هذه الرسالة بهذه الحلة القشيبة[1]، فالنشر -في مركز تدبر- هو أحد أهم الوسائل التي يرتكز عليها في بث هذا المعنى الشرعي العظيم: «تدبر القرآن» بين المسلمين وغير المسلمين.

وإننا لنجد أن من الواجب علينا أن نشكر أخانا فضيلة الشيخ عصام على مبادرته الكريمة بكتابة هذه الرسالة، والإذن لنا بنشرها، جعل الله ذلك في ميزان حسناته، وذخرًا له في حياته وبعد مماته.

وكتبه/
د. عمر بن عبدالله المقبل
المستشار العلمي لمركز تدبر
عضو هيئة التدريس في كلية الشريعة
جامعة القصيم

---

(١) سبق أن طبعت هذه الرسالة أول مرة في دار مدار الوطن بالرياض.



المقدمة

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴾، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾.

والصّلاة والسّلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه،،، أما بعد:

◆ **يا أيها الإنسان: اسمع نداء رب الناس للناس:**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ (١٧٤) النساء.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (٥٧) يونس.

﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ ﴾ (١٠٨) يونس.

في هذه الآيات الثلاث فقط تجيء هذه الأوصاف العِظام بأنه: هو البرهان، هو النور، هو الموعظة، هو الشفاء، هو الهدى، هو الرحمة، هو الحق.

فأين قلوب المؤمنين والمؤمنات عن كتاب ربهم؟

لذا فهذه رسالة «فن التدبر»، وهي الرسالة الأولى ضمن مشروع (تقريب فهم القرآن)، كتبتها لعموم المسلمين، لكل قارئ للقرآن يلتمس منه الحياة والهداية، والعلم والنور، والانشراح والسعادةَ، والمفاز في الدنيا والآخرة، وهي تمثل (المستوى الأول) لمن أراد أن يكون من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وقد توخيتُ فيها الوضوح ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

فأسأل الله أن يتقبلها بقبولٍ حسنٍ، وأن يجعَلها ذُخْرًا أفرحُ بها حين ألقاه.





تمهيد

◆ **تأملت في أحوال أمة القرآن؛ فوجدتُ أنهم في موقفهم من كتاب الله على أقسام ثلاثة:**

أ- قسم أعرض عن كتاب الله وهؤلاء خُصماء رسول الله ﷺ يوم القيامة ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورًا ۝٣٠﴾ الفرقان، وليس الحديث معهم في هذه الرسالة.

ب- قسم يتلو كتاب الله تعالى؛ لكنه لم يستشعر عظمته، ولم يُدرك حقيقته، ولم يقف على سلطانه، ولم يَدْرِ أين إعجازه، ومن أجله كانت هذه الرسالة.

جـ- قسم يُراجع كتب التفسير، وله همة في فهم كتاب الله، لكنه يشعر بأنه ما زال بعيدًا عن التدبر الحق لهذا الكتاب العظيم، وهذا كتبت له رسالة «المَرَاحِـلُ الثـَّمَان لطَالِب فَهْم القُرْآن».

وقد كنتُ وأنا أُقلبُ الفكر في هذا الأمر؛ أعجب -كما عجب أسلافنا- من مقولٍ بليغ لعربي جاهلي صنديدٍ عنيـــد وهو يصف القرآن

المجيـد، يقول: «والله لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه».

فلمــا قرأتُ قولَ بليغ أعجمي! فرنسي!! فيلسوفٍ!!! ملحد!!!! وهو جوزيف آرنست رنان زال -والله- عجبي منهم، وبقي عجبي منَّا، واسمع لما يقول:

«تضم مكتبتي آلاف الكتب السياسية والاجتماعية والأدبية وغيرها والتي لم أقرأها أكثر من مرة واحدة، وما أكثر الكتب التي للزينة فقط، ولكن هناك كتاب واحد تؤنسني قراءته دائما هو كتاب المسلمين القرآن، فكلما أحسست بالإجهاد وأردت أن تنفتح لي أبواب المعاني والكمالات، طالعت القرآن حيث إنني لا أحس بالتعب أو الملل بمطالعته بكثرة، لو أراد أحد أن يعتقد بكتاب نزل من السماء فإن ذلك الكتاب هو القرآن لا غير، إذ أن الكتب الأخرى ليست لها خصائص القرآن».

أليست هي بنفسها مقولة الوليد بن المغيرة؟

فما الذي جعل الوليد وجوزيف! يتفقان على أن القرآن (يعلو ولا يُعلى عليه)؟

إنه قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾(٤) الزخرف.

وما أجمل قول الشاطبي -رحمه الله- واصفا كتاب الله تعالى في ألفيته المشهورة:

وَإِنَّ كِتَابَ اللهِ أَوْثَــقُ شَافِعٍ
وَأَغْـنى غَـنَـاءٍ وَاهِـبًا مُـتَـفَضِّلا
وَخَيْرُ جَلِيسٍ لاَ يُمَلُّ حَدِيثُهُ
وَتَــرْدَادُهُ يَــزْدَادُ فِيـهِ تَجَمُّــلا
وَحَيْثُ الْفَتى يَرْتَاعُ فِي ظُلُمَاتِهِ
مِـنَ القَبرِ يَلْـقَـاهُ سَنًّـا مُـتَـهَـلِّلا

- أخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في شعب الإيمان قال ابن مسعود: من أراد العلم فليثوِّر القرآن فإن فيه علمَ الأولين والآخرين.

قال شمر: تَثوِيرُ القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به في تفسيره ومعانيه.

- **والعجب أننا نؤمن جميعًا بأن هذا القرآن هو النور.. هو الروح.. هو الهدى.. هو الشفاء.. هو الفرقان.. جمع أنواع السلطان كلها.**

ثم بعد هذا كرر النظر، وأرجع البصر في حال أمة القرآن مع القرآن.

فماذا عساك أن ترى؟

الأمر لا يحتاج إلى كثير بيان.

● وهذه نصوص أسئلة تتابعت أذكرها كما هي، يقول أصحابها:

١- أنا أقرأ القرآن، وأقرأ في كتب التفسير، ولا أدرك هذا المعنى العظيم الذي تتحدثون عنه في آيات القرآن؟

٢- عندي يقين تام بأن القرآن معجز لكن لا أدري أين هذا الإعجاز؟

٣- لا أجد لذة عند قرآة القرآن.

٤- هل يمكن أن يحكمنا القرآن في كل قضايانا حتى الاجتماعية والاقتصادية والأمنية والسياسية والإعلامية، وغير ذلك؟

٥- أخت داعية تسأل تقول: ندعو الناس إلى الأنفع لهم أو إلى ما يرغبون فيه؟ هل نعلم الناس الإيمان أو العاطفة؟

٦- أخرى تقول: أليست دراستنا لعلم التوحيد أو الفقه أو الحديث هي المقصودة بتدبر القرآن؟

٧- الأمة اختلفت في فهم القرآن كثيرًا، أما تخشى علينا من هذا؟

٨- لماذا القرآن؟ مشكلات الأمة أهم.. السياسة أهم.. الفقه أهم.. الدعوة أهم.. الجهاد أهم... الاقتصاد أهم.

◆ **والجواب عن هذه كلـّها هو جوابٌ واحد:**

وهو عدم الفهم الحق لهذا القرآن المنزل من لدن حكيم عليم ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (٦) سورة النمل.

فلابد من هذا الفهم -بقدر طاقتك -وإلا والرحمن الذي أنزل القرآن لن تبلغ مُرادك في الصلاح والإصلاح في الدنيا، ولا في الرفعة والدرجات في الآخرة.

◆ وأدلة ذلك مبسوطة ستأتي فيما نستقبل -بإذن الله -، ولكن أُنبّه هنا أن الفهم الحق الذي لابد منه نوعان:

١ - فهم ذهني معرفي..

٢- فهم قلبي إيماني..

والفهم الثاني هو الغاية، والأول إنما هو وسيلة.

قال الحسن البصري -رحمه الله -: العلم علمان:

١) علم في القلب فذاك العلم النافع.

٢) وعلم على اللسان فتلك حجة الله على خلقه.

◆ فتنبه إلى ذلك -يا أخا القرآن -فإنه سُورُ ما بين الفريقين.

فإن قلت: فكيف تحقيق ذلك؟

فالجواب: باتباع منهج الذين قال فيهم الله ﷻ:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾

(٢٩) الفتح.

وقال فيهم ﷺ كما في «الصحيحين» عن عِمرانَ بن حُصَين، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ».

فلا محيد ولا مناص من اتباع منهجهم في تعلُّمنا وتعلِيمنا للقرآن.

فإن قلتَ: وهل خالفناهم في طريق تَعَلُّمِنا أوتَعْلِيمنا القرآن؟

فأقول: نعم -غفر الله لي ولك- قد فعلنا شيئًا من ذلك.

فقد كان السلف -رحمهم الله- من عظيم فقههم يتعلمون الإيمان قبل أن يتعلموا القرآن، يتعلمون صغار العلم قبل كباره، يمتثلون قبل أن يستكثروا.

– فإن سألت: وكيف نسلك طريقهم؟

فالجواب –يا أخا القرآن–: إنما رقمتُ هذه المراحل من أجل بيان ذلك، فخذها لك غُنمها وعلى كاتبها غُرمها ولا حول لي ولا قوة إلا بالله.

◆ وقد قسمتها إلى ثلاثة مستويات:

– المستوى الأول: فن التدبر.

– المستوى الثاني: رسالة «أصول في التفسير» للعلامة ابن عثيمين رحمه الله.

– المستوى الثالث: المَرَاحِـلُ الثَّـمَان لطَالِب فَهْم القُرْآن.

◆ ومراحل المستوى الأول على النحو التالي:

– المرحلة الأولى: لابد من اليقين التَّام أنك مع القرآن حي وبدونه ميِّت، مبصرٌ وبدونه أعمى، مهتدي وبدونه ضال.

– المرحلة الثانية: الأصل في خطاب القرآن أنه موجه إلى القلب.

– المرحلة الثالثة: كيف نقرأ القرآن؟

– المرحلة الرابعة: بأي القرآن نبدأ؟

– المرحلة الخامسة: كيف نستفيد من كُتب التفسير؟

وهذا أوان الشروع في المقصود، مستعينًا بمن أنزل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.





المرحلة الأولى

وهذا الفن يمكن اكتسابه من خلال مراحل خمس:

لابد من اليقين التَّام أنك مع القرآن حي وبدونه ميِّت، مبصرٌ وبدونه أعمى، مهتد وبدونه ضال.

كل قارئ للقرآن العظيم لابد له من هذا اليقين قبل قراءة آياته وسوره، ولذا يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الكتب المنزَّلة -سورة طه- ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾ وأعظم الذِّكر هو هذا الكتاب الخاتم.

- فالقرآن هو الروح وبدونه أنت ميِّت ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (٥٢) الشورى.

- والقرآن هو النور وبدونه أنت أعمى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (١٧٤) النساء، ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (١٩) سورة الرعد.

- والقرآن هو الهدى وبدونه أنت ضال ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ (١٠٨) سورة يونس، والحق هنا هو القرآن كما قاله ابن جرير وغيره، وكل ما عداه من الحق المُبيَّن للناس فإنه تابع له.

- ولذا كان وصف القرآن للمعرضين عنه في غاية الشِّدة من التَّنقُّص والذم، وخذ مثلًا واحدًا على ذلك:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾﴾ سورة المدثر.

فهل تأملت -يا قارئ القرآن- بـِمَ وصف الله عز وجل المعرضين عن القرآن؟

أرجو أن تأذن لي لأقرِّب لك الأمر قليلًا، فأقول:

(الحُمُر) جمع حمار، وهو معروف.

(مُّسْتَنفِرَة) هي الشديدة النِّفار، وهي الهاربة ذُعرًا وخوفًا.

(القَسْوَرَة) هو الأسد أو الرامي ونحوهما.

والمعنى أن المعرض عن القرآن كأنه -عند ربه الذي خلقه- حمار، وليس هذا وفقط، بل هو حمارٌ هائجٌ خائفٌ مذعور.

وصفٌ -والله- مخزي، أجارني الله وإياك من ذلك.

- ولعلك تتأمل هذه الأوصاف التي وصف بها سبحانه وتعالى هذا الكلام الصادر منه جلّ وعلا، فقد وصف الله تعالى كتابه بأنه:

١- هو الحقّ ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ (٣١) سورة فاطر.

٢- الهدى ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً﴾ (٥٢) الأعراف.

٣- العلم ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى

ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١٢٠) سورة البقرة.

٤- البرهان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ (١٧٤) سورة النساء.

٥- المهيمن ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ ﴾ (٤٨) سورة المائدة.

٦- البركة ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ (٢٩) سورة ص.

٧- الموعظة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ (٥٧) سورة يونس.

٨- الشفاء ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (٨٢) سورة الإسراء.

٩- التَّذكِرة ﴿ فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ﴾ (٤٩) سورة المدثر.

١٠- النور ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ (١٧٤) النساء.

١١- الرحمة ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ ﴾ (٨٩) سورة النحل.

١٢- الصِّدق ﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ (٣٣) سورة الزمر.

١٣- المصدِّق ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾ (٣١) فاطر.

١٤- العليّ ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (٤) سورة الزخرف.

١٥- الكريم ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ (٧٧) سورة الواقعة.

١٦- العزيز ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ (٤١) سورة فصلت.

١٧- المجيد ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ (٢١) سورة البروج.

١٨- الفُرْقَانَ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١) الفرقان.

١٩- فيه بصائر ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ (٢٠) سورة الجاثية.

٢٠- وأنه مُحكم ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (٤) سورة الزخرف.

٢١- وأنه مُفصَّل ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ (٣) سورة فصلت.

٢٢- وأنه عَجَب ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ (١) الجن.

٢٣- وأنه بلاغ ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ﴾ (١٠٦) سورة الأنبياء.

٢٤- وأنه بشير ونذير ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ (٤) فصلت.

٢٥-وأنه بيان وتبيان ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (١٣٨) آل عمران، ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ (٨٩) سورة النحل.

أما تكفي هذه الأوصاف لندرك ما الذي نجنيه على أنفسنا بابتعادنا عن القرآن؟!.





الأصل في خطاب القرآن أنه موجه إلى القلب.

القلب أمره جلل، وهو سرٌ من أسرار الله في الأرض، كما قال القائل:

للقلبِ سرٌ ليسَ يعرفُ قدرَه ... إلاَّ الذي آتَاه للإنسانِ

ولذا في هذه الشريعة الخاتم جاء التعظيم لشأن هذه الجارحة كثيرًا، ولو لم يأت إلا ما ثبت في الصحيحين من حديث النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: «ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا و هي القلب» لكان هذا كافيًا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالمقصود تقوى القلوب لله، وهو عبادتها له وحده دون ما سواه بغاية العبودية له، والعبودية فيها غاية المحبة وغاية الذل والإخلاص، وهذه ملة إبراهيم الخليل، وهذا كله مما يبين أن عبادة القلوب هي الأصل كما قال النبي ﷺ: «إن فى الجسد مضغة... الحديث»[1].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٧/ ٤٨٥.

ورحم الله ابن القيم إذ يقول في نونيته:

قطع المسافة بالقلوب إليه[1] لا بالسير فوق مقاعد الركبان

وما أشبعَ كلمات أحمد بن خضرويه حين قال: القلوب أوعية فإذا امتلأت من الحق؛ أظهرت زيادة أنوارها على الجوارح، وإذا امتلأت من الباطل؛ أظهرت زيادة ظلمتها على الجوارح.

وقد وُصفت قراءة الفضيل بن عياض -رحمه الله -فقيل: كانت قراءته للقرآن قراءةً حزينة شهية بطيئة مترسلة، كأنه يخاطب إنسانًا.

◆ ومما يُبيِّن أن القلب هو المخاطب بدءًا بالقرآن؛ أمور منها:

أ- أنّ القرآن نزل أولًا على القلب:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ الشعراء (١٩٣-١٩٥).

فقال: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ولم يقل على سمعك أو بصرك أو ذهنك ونحو ذلك، بل ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، وهذا ظاهر الدلالة.

ويقول تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ (٩٧) سورة البقرة

فأول جارحة تخاطب بهذا القرآن هي القلب، فإن أنصت القلب؛ أنصتت تبعًا له بقية الجوارح، وإن أعرض كانت كالرعية بلا راعي.

---

(١) أي: إلى الله.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في التحفة العراقية - بعد كلام له طويل عن أحوال القلب - قال: «وهذا الذي ذكرنا مما يبين أن أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة؛ من العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونه» (١).

ولذا هُيئ قلب النبي ﷺ لتلقي القرآن قبل نزوله عليه فعن أَنَس بْنِ مَالِك: «أَنَّ رَسُولَ ﷺ: أَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ...» رواه مسلم وللبخاري نحوه.

وقد وصف الصحابة حال قلوبهم أولَّ سماعهم للقرآن، ففي الصحيحين عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ سورة الطور، كاد قلبي أن يطير.

- وجاء عن السلف مثل ذلك في أوّل سماعٍ بالقلب للقرآن:

فعن يونس البلخي قال: كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف، وكان أبوه كثير المال والخدم والمراكب والجنائب والبزاة، فبينا إبراهيم

---

(١) ص: (٤٢).



في الصيد على فرسه يُركِّضُه إذا هو بصوت من فوقه: يا إبراهيم ما هذا العبث؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) سورة المؤمنون، اتق الله، عليك بالزاد ليوم الفاقة فنزل عن دابته وأخذ في عمل الآخرة[١].

- وقال الفضل بن موسى: كان الفضيل بن عياض شاطرًا يقطع الطريق، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينا هو يرتقي الجدران إليها، سمع رجلًا يتلو ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (١٦) الحديد، فقال: يا رب قد آن، فرجع، فأواه الليل إلى خَرِبة، فإذا فيها رفقة، فقال بعضهم: نرتحل، وقال قوم: حتى نصبح فإن فضيلًا على الطريق يقطع علينا، فتاب الفضيل وأمَّنهم، وجاور بالحرم حتى مات[٢].

ب- كثرة تكرار لفظ القلب في القرآن، بل أُسند إليه في الآيات ما لم يُسند إلى غيره من الجوارح:

لفظ القلب والفؤاد والصَّدر في القرآن تكرر كثيرًا، وأُسند إليه في تلك الآيات ما لم يُسند إلى غيره من الجوارح، وقد وقفتُ -ولم أستقصِ- على أربعين وصفًا أسنده القرآن إلى القلب، وهي أوصاف جليلة الأثر جدًّا، أسوقها من أجل أمر واحدٍ فقط، وهو أن الوقوف عليها

---

(١) القصة مشهورة وهي في مسند إبراهيم بن أدهم ص:(١٨)، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٣٨٨ وغيرهما.

(٢) القصة مشهورة، وهي بهذا السياق في تاريخ الإسلام ١٢/ ٣٣٤.

مجتمعة يوقظ الفؤاد لهذا الأمر الجلل، أما الإحاطة بعلم هذه الأوصاف ودلالاتها، فهو فيما نستقبل إن شاء الله، وأذكر معها شاهدًا واحدًا من القرآن، فمن هذه الأوصاف:

١- وَصْفُ التقوى ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ (٣٢) الحج.

٢- الخشوع ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (١٦) سورة الحديد.

٣- الهداية ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١) سورة التغابن.

٤- الرأفة والرحمة ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾ (٢٧) الحديد.

٥- الألفة ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ (٦٣) الأنفال.

٦- الانشراح ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (٢٢) سورة الزمر.

٧- السلامة ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٩) سورة الشعراء.

٨- الإنابة ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ (٣٣) سورة ق.

٩- الطهارة ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ (٤١) سورة المائدة.

١٠- الربط ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ (١١) سورة الأنفال.

١١- العقل ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ (٤٦) سورة الحج.

١٢- الاطمئنان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ (٢٨) سورة الرعد.

١٣- الإخبات ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡ﴾ (٥٤) سورة الحج.

١٤- تزيين الإيمان ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ (٧) الحجرات.

١٥- إنزال السكينة ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ (٤) سورة الفتح.

١٦- الكسب ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ (٢٢٥) البقرة.

١٧- الرَّان ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ (١٤) سورة المطففين.

١٨- الغفلة ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ (٢٨) سورة الكهف.

١٩- المرض ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗا﴾ (١٠) سورة البقرة.

٢٠- الختم ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ (٧) سورة البقرة.

٢١- الرُّعب ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ (١٥١) سورة آل عمران.

٢٢- الزيغ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ (٨) سورة آل عمران.

٢٣- العمى ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ (٤٦) الحج.

٢٤- التَّقلب ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ (١١٠) سورة الأنعام.

٢٥- الاشمئزاز ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾ (٤٥) الزمر.

٢٦- القُفل ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ (٢٤) سورة محمد.

٢٧- ضعف الإيمان ﴿ وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ﴾ (١٤) سورة الحجرات.

٢٨- الطَّبع ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾ (٣٥) سورة غافر.

٢٩- الوَجَل ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ (٢) سورة الأنفال.

٣٠- الرَّيب ﴿ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ (٤٥) سورة التوبة.

٣١- القسوة ﴿ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (٤٣) الأنعام.



٣٢- الغيظ ﴿ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ ﴾ (١٥) سورة التوبة.

٣٣- اللهو ﴿ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ ﴾ (٣) الأنبياء.

٣٤- الكفر ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا ﴾ (١٠٦) سورة النحل.

٣٥- النفاق ﴿ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾ (٧٧) سورة التوبة.

٣٦- الغِل ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ (٤٧) الحجر.

٣٧- الكِبرْ ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ ﴾ (٥٦) سورة غافر.

٣٨- الوسوسة ﴿ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ (٥) سورة الناس.

٣٩- الحسرة ﴿ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ ﴾ (١٥٦) سورة آل عمران.

٤٠- عدم الفقه ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا ... ﴾ (١٧٩) سورة الأعراف.

يا أخا القرآن: هذه أربعون وصفًا، أربعةٌ منها تكفي لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، فكرِّر النظر فيها -ثانيةً وثالثة -، وتفكَّر في هذا الارتباط الوثيق والميثاق الغليظ بين القرآن والقلب، ثم تأمل في أثر ذلك على قلبك.

ج) أنَّ أعظم أثرٍ للقرآن إنما هو في القلب:

فأعظم ما يحدثه الإقبال على القرآن هو حياة القلب وصلاحه، وأعظم داءٍ يُصاب به المعرض عن القرآن هو موت القلب وقسوته،ولذا قُصرِت الذكرى على من كان له قلب، أو اجتهد في إحضار قلبه مع القرآن كما قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (٣٧) سورة ق.

وقد نبَّه سبحانه وتعالى على عظم أثر الإعراض عن القرآن، وأن ذلك يحْرِمُ القلبَ من أنوار الوحي، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (٢٤) سورة محمد.

وقال الإمام عبد الأعلى التميمي في قوله تعالى ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ (١٠٧) سورة الإسراء، قال: إن من أوتي من العلم ما لا يبكيه لخليق أن قد أوتي من العلم ما لا ينفعه؛ لأن الله نعت أهل العلم فقال: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾.

وعن ابن مسعود قال: إن هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره.

واشتهر عن السلف قولهم: إنما العلم الخشية.

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (٤٩) سورة العنكبوت.

قال: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ هو القرآن، ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يعني المؤمنين.

قال ابن كثير: لأنه محفوظ في الصدور، ميسر على الألسنة، مهيمن على القلوب، معجز لفظا ومعنى[1].

- وفي مرسل الحسن رضي الله عنه قال: العلم علمان:

١- علم في القلب، فذاك العلم النافع.

٢- وعلم على اللسان، فتلك حجة الله على خلقه.

فليس العلم ولا الإيمان -عندهم- بكثرة القراءة، بل بخشوع القلب وخشيته.

وفي صحيح مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «التَّقْوَى هَاهُنَا» وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّات.

- والنصوص في الباب كثيرة، لكني أذكر بعض البيان العملي للرسول ثم بعض أتباعه رضي الله عنهم:

---

(١) تفسيره ٣/ ٤١٨.



ففي السنن عن عبد الله بن الشِّخير قال: (رأيت رسول الله ﷺ يصلي بنا وفي صدره أزيز كأزيز المِرجَل[1] من البكاء) صححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح: إسناده قوي.

وثبت عند أحمد والنسائي والحاكم وصححاه وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وصححه ابن القيم من حديث أبي ذر رضي الله عنه: أنه ﷺ قام بآية يرددها حتى الصباح وهي قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١١٨) المائدة.

وفي الدر المنثور عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ (٥٠) الأعراف. أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه شرب ماء باردا فبكى فاشتد بكاؤه فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت آية في كتاب الله ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٤) سورة سبأ، فعرفت أن أهل النار لا يشتهون إلا الماء البارد، وقد قال الله عز وجل: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾[2] (٥٠) الأعراف.

وفي صِفة الصفوة: عن سعد بن زنبور قال: كنا على باب الفضيل بن عياض فاستأذنا عليه فلم يؤذن لنا، فقيل لنا: إنه لا يخرج إليكم أو يسمع القرآن، قال: وكان معنا رجل مؤذن -وكان صيتًا- فقلنا له: اقرأ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ (١) سورة التكاثر، ورفع بها صوته، فأشرف علينا

---

(١) وهو صوت القدر عند غليانها.

(٢) الدر المنثور ٣/ ٤٦٩.

الفضيل، وقد بكى حتى بل لحيته بالدموع، وأنشأ يقول:

بلغـتُ الثمانينَ أو جِـزتُها	فماذا أُؤملُ أو أنتـظـر
أتى لي ثمانون من مولدي	وبعد الثمانين ما يُنتظر
علتني السنونَ فأبلينني	....

- قال: ثم خنقته العبرة، وكان معنا علي بن خَشْرَم فأتمه لنا فقال:

علتنـي السنــونَ فأبلينـني	فرَقَّتْ عظامي وكلَّ البصر[1]

د) المقصود الأعظم من تلاوة القرآن هو تدبر القلب له.

قال الإمام السيوطي في الإتقان: وتسن القراءة بالتدبر والتفهم، فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم، وبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب.

وقد أبان الله سبحانه وتعالى عن الحكمة من تنزيل هذا الكتاب فقال ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (٢٩) ص، واللام في قوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ هي لام العلة، فهو لن يكون مباركًا مباركةً تامة إلا بالتدبر.

---

(١) ٢/ ٢٣٩.

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾(٢٤) سورة محمد،

فإما التدبر أو الأقفال -وليس قفلًا واحدًا -على القلب:

هما طريقان ما للمرء غيرهما فانظر لنفسك ماذا أنت تختار

- ولذا ذم النبي ﷺ من قرأ بعض الآيات ولم يتفكر بقلبه.

فثبت عند ابن حبان في صحيحه وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت:

قال رسول ﷺ: لقد أنزلت على الليلة آية؛ ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ الآيات من آخر سورة آل عمران.

ولعلنا لا نحصي كم سمعنا وقرأنا هذه الآيات، لكن لو تأملنا مليًّا قوله ﷺ: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها» لتغير الحال، والله المستعان.

وهذا ريحانة القُرَّاء من أصحاب رسول ﷺ ابنُ مسعود يقول عن القرآن: قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكون هم أحدكم آخر السورة.

وأختم بمحكم من القول للإمام محمد بن الحسين الآجري يقول فيه: والقليل من الدرس للقرآن، مع الفكر فيه وتدبره أحب إليَّ من كثير من القرآن بغير تدبر، ولا تفكر فيه، فظاهر القرآن يدل على ذلك والسنة، وأقوال أئمة المسلمين.

ولذا في مثل هذه المواطن استوقف النفس وحاسبها، وانظر في حال السلف مع القرآن، ثم في حالها هي مع القرآن، قِسْ هذا إلى ذاك، وقارن بين الحالين، ثم اختر لنفسك، وفقك الله لصلاح قلبك.

فيا أخا القرآن: إذا أردت أن تفتح صفحات هذا القرآن المجيد؛ فقبل هذا تفقد قلبك؛ هل فتحت صفحاته هو أيضًا؟ أم على قلوب أقفالها؟

وفقك الله لهداه.





المرحلة الثالثة

كيف نقرأ القرآن؟

من عظيم شأن القرآن عند الذي تكلّم به سبحانه، أن كيفية القراءة لم تُترك لنا، بل جاء القرآن بالكيفية التي تكون عليها قراءته، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ (١٠٦) سورة الإسراء، وهو أمر بالمكث، وترك العجلة عند القراءة، فعن مجاهد بن جبر -رحمه الله - سُئل عن رجلين أحدهما قرأ البقرة وآل عمران، والآخر قرأ البقرة، وقيامهما واحد، وركوعهما وسجودهما واحد، وجلوسهما واحد، أيهما أفضل؟

قال: الذي قرأ البقرة وحدها أفضل، ثم قرأ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾.

فهلاَّ استوقفت قلوبَنا أمثال هذه الفتاوى من هؤلاء الأئمة، وأيقظتها من غفلتها؟

- وقال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ (٤) المزمل، قال ابن عباس: يقرأ آيتين ثلاثة ثم يقطع، لا يُهَذرِم. وقال مجاهد: تَرسَّلْ فيه ترسلًا.

- وقد امتثل النبي هذا الأمر:

ففي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه سئل عن قراءة رسول الله؟ فقال: كانت مدّا، ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم.

وروى أبو داود و الترمذي وغيرهما عن أم سلمة أنها نعتت قراءة النبي ﷺ بأنها: قراءة مفسرة حرفًا حرفًا[1]. قال الترمذي: حسن صحيح غريب.

وقال قتادة: بلغنا أن عامة قراءة النبي ﷺ كانت المدّ.

◆ ومن الأدلة على كيفية القراءة قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

هذه الآيات سبب نزولها معروف، لكنها جاءت في سياق الكلام عن القيامة، فالسياق في يوم القيامة وأهواله وحال الإنسان فيه؛ فلأي شيء جاءت هذه الآيات الأربع في هذا السياق؟

إنه النهي عن العجلة في القراءة وتحريك اللسان بها سريعًا، خصوصًا في مثل هذه الآيات العظيمات عن مقدمات القيامة وأهوالها.

---

(١) وأما لفظ (كان يقطع قراءته آية آية) فلا يثبت بل هو مرسل، كما أشار إلى ذلك الترمذي وغيره، والفرق بينهما ظاهر من جهة المعنى، وهذا اللفظ هو عمدة من استحب الوقوف على رؤوس الآي في كل حال دون مراعاة المعنى، وهو قول مرجوح.

◆ وأما الآثار عن السلف:

ففي الصحيحين عن ابن مسعود: أن رجلًا قال له: إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة، فقال: هَذًّا كَهذِّ الشِّعر، إن قوما يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع.

وقال ابن أبي مليكة: سافرت مع ابن عباس رضي الله عنه فكان يقوم نصف الليل فيقرأ القرآن حرفًا حرفًا، ثم يبكي حتى تسمع له نشيجًا.

وقال إسحاق بن إبراهيم الطبري: ما رأيت أحدا أخوف على نفسه، ولا أرجى للناس من الفضيل، كانت قراءته حزينة شهية بطيئة مترسلة كأنه يخاطب إنسانا.

فيا أخا القرآن: هكذا ينبغي أن تكون كيفية قراءتنا لهذا القرآن العظيم حزينةً شهيةً بطيئةً مترسلةً، وفقك الله لهداه.





بأي القرآن نبدأ؟

هذه مسألة جليلة كبيرة القدر جدًا، قد خفي على كثير من أهل القرآن وجه الصواب فيها، فوقعوا في خلاف منهج النبي ﷺ ومنهج أصحابه رضي الله عنهم.

ومنهج النبي ﷺ في تعليم أصحابه القرآن هو تعليم الإيمان أولًا قبل تعليم الأحكام، وهي داخلة ضمن القاعدة المشهورة عند السلف في التعليم (العالم الرباني: هو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره)، وقد جاء في تعليم الإيمان قبل الأحكام آثار مشهورة:

- فعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن ثم تعلمنا القرآن،فازددنا به إيمانا [1].
- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانًا، وأنتم تتعلمون القرآن ثم تتعلمون الإيمان.

---

(١) أخرجه ابن ماجه وغيره، قال في مصباح الزجاجة ١/ ١٢: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.



◆ وعنه – رضي الله عنه – قال: لقد عشنا برهة من دهرنا وإنَّ أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها، كما تعلمون أنتم اليوم القرآن، ثم لقد رأيت اليوم رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان؛ فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ما يدرى ما آمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه [(١)].

◆ وفي لفظ عنه – رضي الله عنه – قال: إنا كنا صدور هذه الأمة، وكان الرجل من خيار أصحاب رسول الله ﷺ وصالحيهم ما يقيم إلا سورة من القرآن أو شبه ذلك، وكان القرآن ثقيلا عليهم، ورزقوا علما به وعملا، وإن آخر هذه الأمة يخف عليهم القرآن حتى يقرأه الصبي والعجمي، لا يعلمون منه شيئًا [(٢)].

◆ وعن حذيفة بن اليمان –رضي الله عنه– قال حدثنا رسول الله ﷺ: إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة» متفق عليه.

---

(٢) البيهقي ٣/ ١٢٠. أخرجه الحاكم وصححه على شرط الشيخين، ورواه الطبراني في الأوسط وقال الهيثمي مجمع الزوائد ٧/ ١٦٥: ورجاله رجال الصحيح.

(٣) ذكره شيخ الإسلام في الفتاوى الكبرى ٥/ ٣٣٢، وفي بيان تلبيس الجهمية ٢/ ٤٠٣.

قال ابن تيمية: والأمانة هي الإيمان، أنزلها في أصل قلوب الرجال[1].

◆ ويقرر هذا شيخ الإسلام ابن تيمية في كلام ماتعٍ له في بيان حقائق الدين، ويستشهد لذلك بآياتٍ من كتاب الله، منها:

١- قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ (١٧) سورة هود.

فالبينة من الله هي الإيمان، والذي يتلوه هو شاهد القرآن.

٢- وقوله تعالى: وفي آية النور ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (٣٥) النـــور.

النور الأول هو نور الإيمان، والذي يأتي بعده هو نور القرآن.

يقول رحمه الله:

«فتبين أن قوله: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ (١٧) سورة هود، يعنى هدى الإيمان، ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي من الله يعنى القرآن، شاهد من الله يوافق الإيمان ويتبعه وقال: ﴿وَيَتْلُوهُ ﴾ لأن الإيمان هو المقصود؛ لأنه إنما يراد بإنزال القرآن الإيمان وزيادته.

قال: ولهذا كان الإيمان بدون قراءة القرآن ينفع صاحبه، ويدخل به الجنة، والقرآن بلا إيمان لا ينفع في الآخرة، بل صاحبه منافق، كما فى الصحيحين عن أبى موسى عن النبي ﷺ أنه قال: مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة، طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي

---

(١) مجموع الفتاوى ١٢/ ٢٤٩.

لا يقرأ القرآن كمثل التمرة، طعمها طيب، ولا ريح لها...) الحديث»[١].

وقال رحمه الله: « وقال بعضهم في قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ (٣٥) النـــور.

قال: نور القرآن على نور الإيمان، كما قال: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ (٥٢) سورة الشورى، وقال السدي في قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ (٣٥) النـــور، نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه»[٢].

وقال: «ولهذا دخل في معنى قوله خيركم من تعلم القرآن وعلمه تعليم حروفه ومعانيه جميعًا، بل تعلم معانيه هو المقصود الأول بتعليم حروفه، وذلك هو الذي يزيد الإيمان كما قال جندب بن عبد الله، وعبد الله بن عمر، وغيرهما:تعلمنا الإيمان، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا إيمانا، وإنكم تتعلمون القرآن، ثم تتعلمون الإيمان» [٣].

◆ فإن سألت: ما الإيمان الذي نتعلمه أولًا قبل الأحكام؟

فالجواب: هو أوائل ما علَّمه النبي ﷺ لأصحابه، وهو أوائل ما نزل من القرآن.

فالإيمان الذي تكرر ذكره، والتأكيد عليه في ابتداء دعوة المصطفى

---

(١) مجموع الفتاوى ١٥/ ٧١.

(٢) مجموع الفتاوى ١٥/ ٧١.

(٣) الفتاوى الكبرى ١/ ٣٨١.

ﷺ هو ثلاثة أقسام:

الأول: الإيمان بالله [ربوبيةً وألوهيةً وأسماءً وصفات].

الثاني: الإيمان برسوله ﷺ.

الثالث: الإيمان بالبعث لليوم الآخر.

◆ فإن قيل: وكيف نتعلم هذا الإيمان؟

قيل: من طريقين:

الأول: بالتفكر في آيات الله المرئية، وهذا له محلٌّ آخر غير هذه الرسالة.

الثاني: بالتفكر في أوائل ما نزل من الآيات المتلوة، التي غرست الإيمان كالجبال في قلوب أصحاب رسول الله ﷺ.

وقد جمعهما الله عز وجل في أوّل ما نزَّل على نبيه ﷺ في قوله تعالى:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ العلق.

فجمع له بين القراءة باسم الله، وبين التذكير بنعم الرب على عباده.

فإن قلتَ: قد قرأنا أوائل ما نزل، بل وحفظناه، ولم نرَ أثر ذلك في إيماننا.

فالجواب - يا أخا القرآن -: إننا لم نأخذ القرآن كما أخذوه - رضي الله عنهم-.

◆ فإن سألت: عن أخذهم للقرآن؟

فأقول: اعلم -وفقك الله لهداه- أن القرآن تنزيلُ رب العالمين، وهو كتاب عظيمٌ ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ (٦٧) سورة ص، وثقيلٌ ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ (٥) سورة المزمل، بل بلغ الغاية في الإعجاز، وشدة التأثير ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ (٣١) سورة الرعد أي لكان هذا القرآن، قاله قتادة والفراء وابن قتيبة وابن عطية وابن كثير والسَّعدي وغيرهم[1].

وقد أدرك سلفنا الصالح هذه المسألة، فهذا مالك يُسأل عن مسألة، فقال: لا أدري، فقيل له: إنها مسألة خفيفة سهلة، فغضب، وقال: ليس في العلم شيء خفيف، ألم تسمع قوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ (٥) سورة المزمل.

◆ ولذا كانوا يأمرون بأن يُؤخذ القرآن كما نزل متدرجًا، ويحذرون من ضده أشد التحذير، لأمور منها:

١- لأن ذلك لا يُستطاع أبدًا لعظم القرآن وثقله كما سبق.

٢- ولأن أخذه كما نزل يُثبت الفؤاد ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ (٣٢) سورة الفرقان.

---

(١) يُنظر: زاد المسير ٤/ ٣٣٠، المحرر الوجيز ٣/ ٣١٣، تفسير ابن كثير ٢/ ٥١٦، تفسير السعدي ص: (٤١٨)وغيرها.

٣- ولأن أخذه متدرجًا يُوطِّن النفس على قبول ما يأتي بعد الآيات الأُوَل من الشرائع والحلال والحرام، كما أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنه قالت:

«إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس للإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع شرب الخمر، ولو نزل أول شيء: لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا، وإنه أنزلت ﴿ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (٤٦) القمر، بمكة على رسول الله ﷺ وإني جارية ألعب، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده».

وهذا الوصف منها رضي الله عنها لبيان أثر المنهج الذي تنزّل به القرآن من أعظم ما يكون خطرًا على من خالفه ولم يلتفت إليه، فإن قولها رضي الله عنها (ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع شرب الخمر...) بيان لحال صحابة رسول الله ﷺ مع نهي الله ورسوله، فالآمر هو الله والمبلغ رسول الله ﷺ والمأمور أصحاب رسول الله ﷺ، ثم بعد هذا -لو أن منهج التدرج في تنزّل القرآن خُولف -يكون الرد (لا ندع شرب الخمر، لا ندع الزنا).

فما بالك بجواب غيرهم من بقية الأمة، حين يُقال لهم أولًا (لا تشربوا الخمر، لا تزنوا، لا تفعلوا كذا وكذا)؛ الجواب نراه عيانًا بيانًا في موقف الأمة من أوامر ربها وأوامر رسولها ﷺ، ولاشك أن هذا ليس هو السبب الأوحد، لكنه سبب رئيس لابد من التفطن له.

◆ فإن قائل قائل: فما المنهج الذي تعلَّم وعلَّم أصحاب رسول الله ﷺ عليه القرآن؟

فالجواب: هو البدء بالمفصل أولًا.

وهو الذي ذكرته عائشة رضي الله عنها في الحديث السابق، حين قالت: (إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار).

وحين قالت: (وإنه أنزلت ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (٤٦) القمر، بمكة على رسول الله ﷺ وإني جارية ألعب، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده).

وهذا هو منهج الصحابة ﷺ: ففي مصنف عبد الرزاق: أن عمر كان لا يأمر بنيه بتعليم القرآن، ويقول: إن كان أحد منكم متعلمًا فليتعلم من المفصل فإنه أيسر[1].

وفي صحيح البخاري (باب تعليم الصبيان القرآن): عن سعيد بن جبير قال: إن الذي تدعونه المفصل هو المحكم، قال: وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: جمعت المحكم في عهد رسول الله ﷺ، فقلت له: وما المحكم؟ قال: المفصل.

وقال رضي الله عنهما: تُوفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين، وقد قرأت المحكم[2].

---

(١) ٣/ ٣٨١.

(٢)٢٤/ ١٩٢٢.

فابن عباس -رضي الله عنهما -حين بدأ في زمن رسول الله ﷺ بدأ بالمفصل (المحكم).

◆ فالبدء بالمفصل له ميزات عدّة منها ما يلي:

أ- أنه هو الذي يغرس الإيمان في القلب كأمثال الجبال.

وهذا هو الذي أشارت إليه عائشة -رضي الله عنها- في الحديث السابق حين قالت: (لقد نزل أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس للإسلام نزل الحلال والحرام).

فسور المفصل هي التي تجعل القلب يثوب ويطمئن بالإيمان، فإذا جاء الحلال والحرام بعد ذلك كان السمع والطاعة لرب العالمين ولرسوله الأمين ﷺ.

وبين أيدينا شاهد حيٌّ لا يغيب وهم صحابة رسول الله ﷺ من السابقين الأولين، حين زكّت نفوسهم هذه الآيات العظيمة من هذا الكتاب العظيم، حتى أصبح الإيمان في قلوبهم كالجبال الرواسي.

وتأمل معي هذه السور التي هي من أوائل ما نزل من القرآن باتفاق أهل التفسير، تأملها سورةً سورة ولا تعجل -شرح الله صدرك بكتابه-:

١- سورة ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾.

٢- سورة ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾.

٣- سورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾.

٤- سورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴾.

٥- سورة ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾.

٦- سورة ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾.

٧- سورة ﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴾.

٨- سورة ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴾.

٩- سورة ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾.

١٠- سورة ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ﴾.

١١- سورة ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾.

١٢- سورة ﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾.

١٣- سورة ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ﴾.

١٤- سورة ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾.

١٥- سورة ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ وغيرها...

فتأمل مالذي تغرسه هذه السور في القلب لو قرأناها وفهمناها كما يريده الله منّا؟

الأمر عظيم جليل، فتدبر فيما نزلت، وفقك الله لهداه.

- ومما ينبغي التنبيه عليه في مثل هذا الموطن أن حزب المفصل من كتاب الله جاء لتقرير ثلاث حقائق:

١- توحيد الله في ربوبيته وألوهيته.

٢- إثبات البعث والدار الآخرة.

٣- الأمر بمكارم الأخلاق.

وبيان هذا وذكر أدلته من الكتاب والسنة، ثم من كلام أهل العلم ليس هذا محلّه، وإنما أردت الإشارة إليه، لعل قارئ المفصل يُفيد منه في حين تدبره لهذا الحزب من القرآن.

ب- أنه أيسر في الفهم؛ لأنه محكم ليس فيه متشابه إلا ما ندر.

وقد سبق قول عمر: إن كان أحد منكم متعلماً فليتعلم من المفصل فإنه أيسر.

وقول ابن عباس: جمعت المحكم في عهد رسول الله ﷺ، فقيل له: وما المحكم؟ قال: المفصل. فهو محكم ظاهر، بخلاف غيره من القرآن ففيه متشابه.

وأخرج الدارمي وغيره عن ابن مسعود قال: إن لكل شيء سنامًا وإن سنام القرآن سورة البقرة، وإن لكل شيء لُبابًا وإن لُباب القرآن المفصل.

أفيُبتغى الوصول للسّنام قبل اللُّباب المُيسَّر؟!





كيف نستفيد من كُتب التفسير؟

كتب التفسير المناسبة لهذا المستوى كثيرة، منها:

١- المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير للمباركفوري.

٢- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للعلامة السَّعدي.

٣- زبدة التفسير من تفسير فتح القدير لـ د. محمد بن سليمان الأشقر.

٤- التفسير الوجيز لـ د. وهبة الزحيلي، ومعه أسباب النزول، وقواعد الترتيل.

٥- أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري.

◆ والذي أراه لعموم المسلمين أن يجمعوا بين كتابين هما:

◆ المصباح المنير:

وهو تفسير مختصر يعتني بالآثار ويرتبها، وهو يفيد في بيان معنى الكلمة عند السلف رضوان الله عليهم أجمعين.

فإن كان المصباح المنير فيه عُسُر؛ فزبدة التفسير للأشقر فيه نفع كبير.

◆ تيسير الكريم الرحمن:

للعلامة السَّعدي، لأنه يعتني بالمعاني العامة، وبمسائل الإيمان والتربية ونحو ذلك، ويُصرِّح بالعقيدة الصحيحة، وينبِّه على مخالفة المخالفين لها، وغير ذلك مما يحتاجه عموم المسلمين.

فيقرأ أولًا في (المصباح) أو (زبدة التفسير) فيأخذ معاني الكلمات، ثم في تفسير السعدي فيأخذ المعاني العامة.

فإن شق على أحدٍ أن يجمع بين كتابين فعليه بكتاب (أيسر التفاسير) فإنه جمع بين بيان اللفظ والمعنى، وإن كان دون ما تقدم في التحرير لكنه مفيد، وقد نفع الله به في مشارق الأرض ومغاربها.





خاتمة

تتعلق بالعناية بتدوين أخبار وقَصص الأئمة سلفًا وخلفًا مع القرآن، ثم الاستشهاد بها في محلِّها من التفسير. [وهذا مع عظيم فائدته إلا أنه من مُلح التفسير لا من متينه].

أختم هذه المراحل بلطيفةٍ مؤثرة في المتلقي اعتنى بها أهل التفسير بالمأثور، وهي ذكر ما يحضرهم من أخبار وقَصص العلماء والصالحين سلفًا وخلفًا، المتعلقة بالآية المفسَّرة في محلِّها من التفسير، لا على سبيل الاستقصاء، وإنما متى خال له أن في ذلك فائدة، إما في إحقاق حقٍ أو ردع مُبطل، وإما تأثرًا وخشية، أو إنابةً وتوبة، أو تزكيةً وتربية، أو تفقهًا واستنباطا ونحو ذلك كثير، ثم يذكرها مع الآية التي وردت القصة فيها.

وهذا النوع من البيان العملي له أثر ه البالغ في زيادة الإيمان، وفي التهذيب والتربية، وفي الجدال والإقناع ونحو ذلك، لذا أذكر بعضًا مما وقفتُ عليه في هذا المعنى:

١ - البقرة:

- أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنه قال: تعلم عمر ﷺ البقرة في اثنتي عشرة سنة فلما ختمها نحر جزورًا. وذكر مالك في الموطأ أنه بلغه أن ابن عمر ﷺ مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها.

- وعن مجاهد؛ أنه سئل عن رجلين قرأ أحدهما البقرة وآل عمران، والآخر البقرة وحدها، وزمنهما وركوعهما وسجودهما وجلوسهما واحد سواء؟

فقال: الذي قرأ البقرة وحدها أفضل. (هذا في بيان فضل التدبر على الإكثار من القراءة).

٢- سورة النساء:

- ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية عن عمر بن عبد العزيز في قوله تعالى ﴿... فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾

(١٤٠) سورة النساء.

- قال شيخ الإسلام: ورُفع إلى عمر بن عبد العزيز قوم يشربون الخمر وكان فيهم جليس لهم صائم، فقال: ابدؤوا به في الجلد، ألم تسمع الله يقول: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ ﴾[١].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٥/ ٣١٥.

٣- سورة الأعراف:

- ذكر السيوطي في الدر المنثور عند قوله تعالى ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ (٥٠) الأعراف. قال عقيل بن شهر الرياحي: شرب عبد الله بن عمر ماء باردًا فبكى، فاشتد بكاؤه، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت آية في كتاب الله ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾ (٥٤) سورة سبأ، فعرفت أن أهل النار لا يشتهون إلا الماء البارد، وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [١].

- ما ذكره ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (٨٠) سورة الأعراف.

قال ابن كثير: قال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي باني جامع دمشق: لولا أن الله عَزَّ وَجَلَّ قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرا [٢].

٤- سورة يوسف:

- في قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ (٨٤) يوسف.

عن سعيد بن جبير قال: لقد أعطيت هذه الأمة عند المصيبة شيئا لم تعطه الأنبياء من قبلهم -يعني قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ سورة البقرة -قال: ولو أعطيها الأنبياء لأعطيها يعقوب، إذ يقول: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

---

(٢) الدر المنثور ٣/ ٤٦٩.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٣١.

- ومن جميل ما يُذكر؛ أن الشيخ محمد رشيد رضا قد تُوفى عند تفسيره -أواخر سورة يوسف -لقوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (١٠١) يوسف.

٥- سورة النحل:

-ما ذكره البغوي في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩٠) النحل

قال البغوي: وعن عكرمة: أن النبي ﷺ قرأ على الوليد بن المغيرة قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ...﴾ الآية، فقال له: يا ابن أخي أعد، فعاد عليه، فقال: إن له والله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول البشر [1].

٦- سورة المؤمنون:

- عن يونس البلخي قال: كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف، وكان أبوه كثير المال والخدم والمراكب، فبينا إبراهيم في الصيد على فرسه يُركِّضُه إذا هو بصوت من فوقه، يا إبراهيم، ما هذا العبث؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) المؤمنون، اتق الله، عليك

---

(١) البغوي ٣/ ٨٢.

بالزاد ليوم الفاقة، فنزل عن دابته وأخذ في عمل الآخرة[1].

- في الطبقات لابن سعد (٧/ ١٦٤) وغيره عن الحسن البصري قال: إن الحجاج من عذاب الله، فلا تدفعوا عذاب الله بسيوفكم، ولكن عليكم بالاستكانة والتضرع، فإنه تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾(٧٦) المؤمنون.

٧- سورة العنكبوت:

- قال ميمون بن مهران: ما أتى قوم في ناديهم المنكر إلا حق هلاكهم[2]. يشير إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴿٢٩﴾﴾ -إلى قوله تعالى-: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ سورة العنكبوت، مع الحديث المتفق على صحته (كل أمتي معافى إلا المجاهرين).

٨- سورة يس:

- في البداية والنهاية لابن كثير: أن ميمون بن مهران قرأ قوله تعالى: ﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٩) يـس، فبكى طويلًا ثم قال: ما سمع الخلائق بنعت قط أشدَّ منه.

---

(١) القصة مشهورة وهي في مسند إبراهيم بن أدهم ص:(١٨)، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٣٨٨ وغيرهما.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٣١٨.

٩- سورة الزمر:

- كان الضحاك إذا تلا قوله تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ (١٦) سورة الزمر، رددها إلى السَّحر.

١٠- سورة الجاثية:

- أخرج ابن المبارك وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي الضحى قال: قرأ تميم الداري رضي الله عنه سورة الجاثية فلما أتى على هذه ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٢١) سورة الجاثية، فلم يزل يكررها ويبكي، حتى أصبح وهو عند المقام [١].

١١- سورة الطور:

- ذكره ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ (٧) الطور: أن عمر ﷺ خرج يعس المدينة ذات ليلة فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائما يصلي، فوقف يستمع قراءته فقرأ ﴿ وَٱلطُّورِ ﴾ حتى بلغ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ ﴾ قال: قسم ورب الكعبة حق. فنزل عن حماره واستند إلى حائط، فمكث مليًا، ثم رجع إلى منزله فمكث شهرا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه رضي الله عنه.

- وعن الحسن أن عمر ﷺ قرأ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ ﴾ فربا لها ربوة عيد منها عشرين يومًا [٢].

---

(١) ١٣/ ٣٥٧.

(٢) ٤/ ٢٤١.

- وعن عبادة بن حمزة قال دخلت على أسماء رضي الله عنها وهي تقرأ ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ (٢٧) سورة الطور،فوقفت عندها فجعلت تعيدها وتدعو فطال علي ذلك، فذهبت إلى السوق فقضيت حاجتي، ثم رجعت وهي تعيدها.

- وفي تاريخ بغداد: قال زائدة: صليت مع أبي حنيفة في مسجده عشاء الآخرة، وخرج الناس، ولم يعلم أني في المسجد، وأردت أن أسأله عن مسألة من حيث لا يراني أحد، قال: فقام فقرأ، وقد افتتح الصلاة حتى بلغ إلى هذه الآية ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ (٢٧) الطور، فأقمت في المسجد أنتظر فراغه، فلم يزل يرددها حتى أذن المؤذن لصلاة الفجر [١].

- وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾، كاد قلبي أن يطير.

١٢- سورة القمر:

- قال القاسم بن معين: قام أبو حنيفة ليلة بهذه الآية ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾(٤٦) سورة القمر، يرددها ويبكي ويتضرع [٢].

---

(١) ١٣/ ٣٥٧.

(٢) ١٣/ ٣٥٧.

- ومما ذكره ابن كثير عن وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية قال: ...وأخبر الحاضرين أخوه زين الدين عبد الرحمن أنه قرأ هو والشيخ منذ دخل القلعة ثمانين ختمة، وشرعا في الحادية والثمانين فانتهينا فيها إلى آخر «اقتربت الساعة» عند قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ (٥٥) سورة القمر.

١٣- سورة الحديد:

- قال الفضل بن موسى: كان الفضيل بن عياض شاطرًا يقطع الطريق، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينا هو يرتقي الجدران إليها، سمع رجلاً يتلو ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ (١٦) الحديد، فقال: يا رب قد آن، فرجع، فآواه الليل إلى خَرِبة، فإذا فيها رفقة فقال بعضهم: نرتحل، وقال قوم: حتى نصبح فإن فضيلا على الطريق يقطع علينا، فتاب الفضيل وأمَّنهم، وجاور بالحرم حتى مات [1].

١٤- سورة المزمل:

- سُئل مالك عن مسألة فقال: لا أدري، فقيل له: إنها مسألة خفيفة سهلة، فغضب وقال: ليس في العلم شيء خفيف، ألم تسمع قوله الله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

---

(١) القصة مشهورة، وهي بهذا السياق في تاريخ الإسلام ١٢/ ٣٣٤.

١٥- سورة الزلزلة:

- قال محمد بن كعب، الإمام الرباني: لأن أقرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، أرددهما وأتفكر أحب إليَّ من أن أهُذّ القرآن.

- وحين نزلت إذا زلزلت الأرض زلزالها وأبو بكر الصديق قاعد فبكى حين أنزلت، فقيل له: ما يبكيك يا أبا بكر؟ قال: يبكيني هذه السورة [١]

- وعن إبراهيم التيمي قال: أدركت سبعين من أصحاب ابن مسعود أصغرهم الحارث بن سويد فسمعته يقرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، حتى بلغ إلى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾، قال: إن هذا إحصاء شديد.

- وقال يزيد بن الكميت: قرأ بنا علي بن الحسين المؤذن في عشاء الآخرة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ وأبو حنيفة خلفه فلما قضى الصلاة، وخرج الناس نظرت إلى أبي حنيفة وهو جالس يفكر ويتنفس، فقلت: أقوم لا يشتغل قلبه بي، فجئت وقد طلع الفجر، وهو قائم قد أخذ بلحية نفسه، وهو يقول: يا من يجزئ بمثقال ذرة خير خيرا، ويا من يجزئ بمثقال ذرة شر شرا أجر النعمان عبدك من النار، وما يقرب منها من السوء، وأدخله في سعة رحمتك.

---

(٢) تفسير الطبري ٣٠/ ٢٧٠.

قال: فأذنت فإذا القنديل يزهر وهو قائم، فلما دخلت، قال: تريد أن تأخذ القنديل، قلت: قد أذنت لصلاة الغداة، قال: اكتم على ما رأيت[(١)].

١٦- سورة التكاثر:

- قال رجل لابن المبارك: قرأت البارحة القرآن في ركعة، فقال: لكني أعرف رجلا لم يزل البارحة يقرأ  ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ إلى الصبح ما قدر أن يجاوزها (يعني نفسه)[(٢)].

---

(١) ١٣/ ٣٥٧.

(٢) تاريخ مدينة دمشق: ٣٢/ ٤٣٥.



ختاماً

◆ أسأل الله تعالى أن يرزقنا جميعًا الفقه في دينه، وأن يعلمنا تأويل كتابه.

◆ اللهم إنا نسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا.

◆ اللهم اجعل لنا من كتابك العظيم في قلوبنا نورا، وفي أسماعنا نورا، وفي أبصارنا نورا، وفي ألسنتنا نورا، واجعل لنا منه نورا يا نور السموات والأرض..

◆ اللهم علمنا منه ما جهلنا، وذكرنا منه ما نُسِّينا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيك عنا.

◆ هذا ما تيسرت كتابته على عُجالة من الأمر[1]، فأسأل الله العفو الغفور أن يتقبلها بقبول حسن، وأن يجعلها ذُخْرًا أفرح بها حين ألقاه، وبهذا تنتهي رسالة « فن التدبـر ».

وصلى الله وسلّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وزوجاته، وعلى التابعين، ومن اقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

◆◆◆◆

---

(١) تم بحمد الله في ليلة الثلاثاء الثامن عشر من شهر رجب المحرم لعام ألفٍ وأربعمائة وستة وعشرين للهجرة.



الفهرس



